

سوسولوجي يمعن النظر في السياسة

عبدالله ساعف

المفكر المغربي الذي يكشف عن هوية المجتمع والدولة

محمد ماموني العلوي
صحافي مغربي

ساعف يوصي بأن أهم الرهانات هي جعل الدولة تتحرر من توجهها نحو تفضيل نزعاتها السلطوية الأمنية، وأن تبني علاقة توازن أفضل مع متطلبات موقف أكثر ديمقراطية.



فلسفة التسييس عند ساعف مرتبطة بالعقلانية كشرط أساسي لتعبئة المجتمع بشكل مستمر وغير قابل للتجزئ، المناسباتي كالانتخابات مثلا، فالحياة السياسية تحتاج إلى حركية حزبية دائمة

كانت بمثابة تمرين سياسي لا غالب فيه ولا مغلوب، ولا يحق لأحد الإغراء والمزايدة بربحه على طرف آخر، فلا المشاركين كسبوا الرهان ولا المقاطعين حققوا شيئا. فتجربة حكم اليساريين تجربة معقدة سياسيا وخارج منطق التقييم السياسي ومقومات ثقافة التقييم.

وحتى عندما انبرى باحثون في العلوم السياسية ومراقبون لإخضاع حكومة الإسلاميين لمنطق المقارنة مع تجربة اليساريين الذين دبروا الشان العام في عهد اليوسفي، خرج ساعف بأدواته التحليلية ليقول إن إمكانية مقارنة حكومة بن كيران بحكومة اليوسفي لا توجد أصلا، فحكومة الأخير تتميز فقط بكونها ولدت إثر الربيع العربي، وفي ظل الدستور الجديد.

الأدب الحامل للوعي

لم يطرق ساعف ميدان الرواية من باب الترف الفكري أو تزجية للوقت، بل كان محاولة أدبية لفهم الحاضر وبناء عقيدة مستقبلية تأسيسا على ما حدث بالأمس، وهذا ما تناوله عدد من الأعمال منها رواية الحافلة مثل "سرس الشوارع الكبير"، الصادر باللغة الفرنسية، كسرديّة سياسية تناولت ما اصطلح عليه بـ"سنوات الرصاص"، التي تبحت في جوانب الصراع الذي كان على أشده بين السلطة والمعارضة في سبعينات وثمانينات القرن الماضي. وبين الأكاديمي السوسولوجي والإدبي يحلم ساعف بنص جامع يمكنه من قول الأشياء الواقعية والعلمية والموضوعية بشكل يجذب القارئ ويفرض عليه الإنصات، لذا يختم بالا حدود للتخصص.

وبهذا الفهم العميق لأدوار السلطة بالمغرب على مر العصور، كما يخلص ساعف، تطرح بشكل جوهري مسألة المصالحة بين الدولة والمجتمع، وتمثل ذلك في العصر الحديث من خلال التناوب في العام 1998 والإنصاف والمصالحة بعد تولي الملك محمد السادس الحكم.

المحيط الدولي على كافة المستويات، وأزمة التعليم بنوية في أساسها وتتطلب إصلاحات تمس قطاعات مرتبطة به، لكن الخطاب الذي يصف وضع التعليم الكارثي تشخيص فضفاض وغير دقيق ولا يتفق معه ساعف. فالوضع يتميز بجوانب إيجابية وأخرى متوسطة مع العديد من النقاط السوداء، ومن هذا المنطلق دعا وزير التعليم السابق للخروج من اجترار الدعوات المؤسسة على فشل المدرسة العمومية وتجاوز هذا الطرح بإبداء نوع من التفاؤل سادام هناك هامش للانتقال والحركة، وإلى جانب تكييف البرامج مع التطورات الحاصلة في العالم والتنبؤ بالاحتياجات المستقبلية لا بد من إدخال جرعة إبداع في المنظومة التربوية والانفتاح على التجارب الرائدة.

هناك من يرى أن التعليم ليس من وظيفة الأحزاب بل مهمة المجتمع المدني، وحتى لا يخرج عن إطاره النقدي البناء وعدم الابتعاد عن جوهر المشكل، لفت ساعف إلى صعوبة الحديث عن محاكمة السياسات الإصلاحية في قطاع التعليم، لأنها تعتمد التخطيط الاستراتيجي الذي يمتد لسنوات طويلة، ما يجعل نتائجها مرتبطة لعامل الزمن وتعاقب المسؤولين.

على العكس من آخرين انتقدوا حكومة التناوب، وجدلوا اليساريين الذين آمنوا بضرورة المشاركة في تدبير الشأن العام والدخول في دوليب السلطة والتعرف على ميكانيزمات تسيير المؤسسات، فإن ساعف يوضح أن فكرة المشاركة لم تكن تدعي أنها ستصلح كل شيء وإنما "سنخاطر ونتحمل المسؤولية ونحاسب في ما بعد". وبحسبه الأكاديمي ونظرة السياسية بلغت ساعف إلى أن المرحلة

ويعطينا ما نعيشه الآن، وهنا تخلص ذهنية ساعف الأكاديمي وعالم الاجتماع، إلى أنه لا بد من التفكير في مرحلة حزبية انتقالية وعلى الأحزاب العمل على أفكار وتصورات جديدة تبرز من خلالها شخصيتها على أساس التجارب التاريخية التي عاشتها. كل التنظيمات السياسية، بمبنية ويسارية، تتحمل المسؤولية لأنها لم تقم بالمراجعات والاجتهادات اللازمة، والبحث عن الطرق الأكثر نجاعة في التعامل في القضايا المطروحة كما أنها لم تنجح في وضع مسافة بينها وبين السلطة، وهنا يشرح عبدالله ساعف، أن السلطوية بنية مادية ومصالح وتكفل وثقافة، وطريقة معالجتنا لقضايا معينة.

البداية من التعليم

لا مستقبل للمغرب دون منظومة تعليمية متطورة تستجيب للواقع ولتطلعات المواطن في عيش أكثر كرامة واستقرارا وتماسكا واندماجا داخليا وانسجاما مع تحولات

السلك لس الضعف الذي طال الأحزاب السياسية المغربية لكنها لم تتفكك، وفي تحليله للوضع يرجع ساعف إلى حكومة التناوب التوافقي في العام 1998، وحتى يعطي تبريرا موضوعيا فقد كون هذه الفكرة عندما كان وزيراً للتعليم، فملاحظته انصبت على نقط معينة منها أنه عندما كانت تجتمع الأحزاب السياسة التي شاركت في حكومة التناوب من أجل إعطاء أفكار حول سبل النهوض بأوضاع التعليم، كانت مقترحاتها متشابهة ومكررة. ضعف الكيانات الحزبية لم يكن للسلطة أي يد فيه حتى وإن كان هناك تدخل روتيني هنا أو هناك، فساعف وبمجهز الباحث المتيقظ اعتبر أن السلطة استمرت في نهجها ببناء ذاتها وصيانة قوتها ومركزها، لكنها تركت الأحزاب تضعف من تلقاء نفسها، لأنها تدرك أن تدخلها قد يفوّق تلك الأحزاب.

أما وصول حزب العدالة والتنمية إلى الحكومة في العام 2012، وهو الذي كان يمثل معارضة ذات خصائص مختلفة، فقد اعتبر حدثا جرى في ظل شروط أبرزها الإعياء الذي أصاب الأحزاب التقليدية، الحزب اغتم حركة 20 فبراير لبناء قدرة جديدة للتفاوض بين الفاعلين السياسيين. واقع آخر نتج عن ارتباط أو عدم عناية بالواقع الحزبي المغربي تمثل في عدم إعطاء أولوية لتقييم تجارب المشاركة في الحكومات السابقة والوقوف على مواطن الضعف والقوة لاستخلاص نتائج التدبير السياسي، بمعنى أن هناك تراكما أخذ وقته الكامل ليختصر

تحمّل مسؤوليته إزاء مجتمعه، كما أنه آمن بأهمية الثقافة في إنارة دُرْب النضال، ولذلك عمل دائما على توسيع أفق معارفه، ونَهَل منهم من الكتب القانونية والفلسفية والسياسية، ما جعله من أبرز المثقفين الموسوعيين في المغرب.

النخبة المتهمّة
المثقف الحقيقي المعني بشؤون مجتمعه هو من يفكر بشكل استراتيجي في الحال والمآل، ماذا نملك وكيف ندبر ما نملكه من ثروات طبيعية وبشرية، هكذا هو ساعف، ما يشغله هو كيفية المثلى لتدبير سكان المدن المغربية خصوصا تلك التي تملك ثروات باطنية من ذهب وفحم ورمال وغيرها، وتركيزه منصب على القدرة على التجديد وإعادة الأحياء كشمس بنيوي في تدبير السياسات العمومية.

على امتداد سنوات عمره البالغ اليوم 70 عاما، استطاع ساعف أن ينقش اسما له رينيه الأكاديمي وكلمته الوازنة في العلوم السياسية والاجتماعية. جمع بين الخبرة في المجال الجمعي والسياسي، فأخترت عنده أفكار وممارسات طرحها للإفادة كمورد فكري وعملي.

طالب الكل في المغرب، شعبا وملكاً، بضرورة تغيير العقلية التديريّة والبروقايات التي لا تملك حسنا مهنيا وطنيا وتكونيا سياسيا وعلما، وفي هذه المرحلة يرى ساعف أننا نحتاج إلى تسييس المجتمع وهذا شرط أساسي للتقدم.

وكمستحب بقيم الحداثة والديمقراطية وحرية إبداء الرأي والحوار الجاد البناء ناضل ساعف من أجل نقاش عمومي للتلطات الكبرى والقضايا الأساسية، يجب أن يسود داخل المجتمع المغربي، مقارنا بين جيل عاش مرحلة الاستعمار ونشاط الحركة الوطنية وفترة الاستقلال وما طبعها من نقاشات سياسية وجيل حالي لم يحظ بتلك التنشئة.

فلسفة التسييس عند ساعف مرتبطة بالعقلانية كشرط أساسي لتعبئة المجتمع بشكل مستمر وغير قابل للتجزئ المناسباتي كالانتخابات مثلا، فالحياة السياسية لها منطلقها وسيورتها وتحتاج إلى حركية حزبية دائمة ومستمرة وموجات التعبئة التي حصلت إلى الآن، سواء من فوق أو من تحت، محدودة.

رصد المجتمع المدني

المستويات التي تتمازج فيها الحركات الاجتماعية، مع تطور فلسفة المجتمع المدني، لحظة هامة في حركية المجتمع، ويفصل ساعف في المسألة بالقول إن المرور من وضعية حركة جموعية إلى وضعية مجتمع مدني، ومن وضعية مجتمع مدني إلى وضعية حركات اجتماعية ليس واضحا ومنميرا، فالفاعل الجمعي صار يغير من مواقفه بحسب تغير الأوضاع.

ولما كان التمويل أمرا ضروريا في العمل الجمعي، فقد جعلت الجهات المانحة الجمعيات رهينة لنظرتها عن بعد بواسطة سياسة طلبات العروض، مما منع من بلورة طبيعة لوعي حقيقي، لذا ينبغي حسبا يرى ساعف، إضافة الاستراتيجيات الجديدة للمانحين والممولين الذين ساهموا

جمع العلم والتواضع مع رحابة الصدر كحكمة صوفية فعالة ضد ضغوط الشهرة والانتشار، عاش ليتعلم ممن حوله أجديات العلم والسياسة ثم جلس على كرسي العلم لروي ظما الباحثين عن المعرفة. زواج بين الممارسة السياسية كمناضل يساري مع التنظير في علم الاجتماع والحقوق والسياسة، لكنه في كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالرباط يظل أستاذا للتعليم العالي، مَيّر دائما بين الأكاديمي والسياسي، وأهم التزام في حياته هو العلاقة بالبحث والتدريس، واثما هناك تمييز بين المجالين.

تمرس ساعف على فنون المعرفة، فتم اختياره وزيرا للتعليم في حكومة التناوب في عهد الاشتراكي عبدالرحمن اليوسفي في العام 1998، ولا يزال معنا يذكرنا بما يجب أن نعمل في ما استشكل علينا، ونذكره كرمز كبير في المشهد الثقافي المغربي، وكمدبر مركز للدراسات والأبحاث في العلوم الاجتماعية، تم تصنيفه كاهم مركز دراسات مغربي، ومن بين أهم عشرة مراكز الأندلس تأثيرا في العالم، بحسب جامعة بنسلفانيا الأميركية، رغم أن ما يعاب عليه أن غالب منشوراته بغير اللغة العربية.

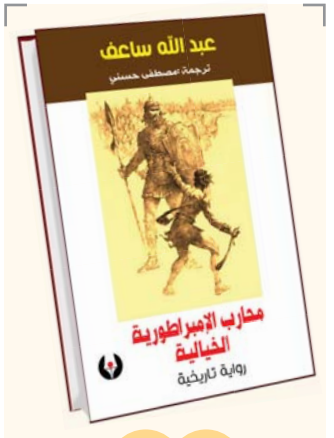
على امتداد سنوات عمره البالغ اليوم 70 عاما، استطاع ساعف أن ينقش اسما له رينيه الأكاديمي وكلمته الوازنة في العلوم السياسية والاجتماعية. جمع بين الخبرة في المجال الجمعي والسياسي، فأخترت عنده أفكار وممارسات طرحها للإفادة كمورد فكري وعملي.

طالب الكل في المغرب، شعبا وملكاً، بضرورة تغيير العقلية التديريّة والبروقايات التي لا تملك حسنا مهنيا وطنيا وتكونيا سياسيا وعلما، وفي هذه المرحلة يرى ساعف أننا نحتاج إلى تسييس المجتمع وهذا شرط أساسي للتقدم.

وكمستحب بقيم الحداثة والديمقراطية وحرية إبداء الرأي والحوار الجاد البناء ناضل ساعف من أجل نقاش عمومي للتلطات الكبرى والقضايا الأساسية، يجب أن يسود داخل المجتمع المغربي، مقارنا بين جيل عاش مرحلة الاستعمار ونشاط الحركة الوطنية وفترة الاستقلال وما طبعها من نقاشات سياسية وجيل حالي لم يحظ بتلك التنشئة.

فلسفة التسييس عند ساعف مرتبطة بالعقلانية كشرط أساسي لتعبئة المجتمع بشكل مستمر وغير قابل للتجزئ المناسباتي كالانتخابات مثلا، فالحياة السياسية لها منطلقها وسيورتها وتحتاج إلى حركية حزبية دائمة ومستمرة وموجات التعبئة التي حصلت إلى الآن، سواء من فوق أو من تحت، محدودة.

التساؤل الملح هو هل ما نعيشه الآن بالمغرب أزمة نخبة أم مشكلة رؤى وتصورات استراتيجية؟ سؤال تم طرحه كثيرا في الأونة الأخيرة إلى الحد الذي طالب فيه ملك البلاد رئيس حكومته بالبحث عن كفاءات تصلح لتعديل حكومي لتتطلبه المرحلة. نخبة بسبق لساعف أن طرح بخصوصها أفكارا ورؤى سواء كسياسيين أو فاعلين في المجتمع المدني أو مثقفين. وهو بشكل حجة تفند ما يُساع عن أن النخبة المثقفة المغربية بعيدة عن الالتزام بقضايا المجتمع، بهذه الكلمات عبر محمد النشاش، الرئيس السابق للمنظمة المغربية لحقوق الإنسان، عن رأيه في الرجل، واصفا إياه بالهزم المغربي الذي يعتز ويفتخر به المغرب.



ساعف يزواج بين الممارسة السياسية كمناضل يساري مع التنظير في علم الاجتماع والحقوق والسياسة وحقول الأدب المتسعة في عالم الرواية



شهادات كثيرة في حق الموسوعي ساعف تؤكد أنه من أبرز شخصيات الفعل السياسي والنقابي والعمل التطوعي بالمغرب حيث أبان عن التزام سياسي بالغ الأثر في منظمة العمل الديمقراطي الشعبي، من خلال شغله عضوية لجنهتها المركزية لمدة طويلة، ومشاركته في كل المحطات التي مرت بها المنظمة، قبل الانشقاق عنها وتأسيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي اندمج مع الاتحاد الاشتراكي قبل سنوات.

يقول عنه جامع بيضا، مدير مؤسسة أرشيف المغرب، إن المسؤوليات الكثيرة التي تحمّلها ساعف، وانخراطه الدائم في الشؤون في القضايا الأساسية للمجتمع، جعلت منه مثقفا مناضلا،